

مجلة دراسات المجلد ١٣ العدد ٠١ جويلية ٢٠٢٤

مفهوم النص الديني بين علماء الأصول ودعاة الحداثة.

The concept of the religious text between scholars of origins and advocates of modernity.

بوسكرة علي *

جامعة محمد لمين دباغين سطيف ٢

a.boussakra@univ-setif2.dz

تاريخ القبول: ٢٠٢٤.../٠٧.../٠١٥٠٠

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣.../٠١.../٠٢٠٠٠

تاريخ النشر: ٢٠٢٤/٠٧/١٨

ملخص:

من المصطلحات التي احتلت حيزا هاما وكبيرا في الدراسات الفلسفية عامة واللغوية على وجه الخصوص هو مصطلح "النص" حيث عرف تناوله تطورا كبيرا من جهة واختلافا فكريا ومعرفيا ومنهجيا من جهات أخرى، والذي يهمننا في هذا البحث ليس النص فقط وإنما النص الملحق بالصيغة الدينية أي النص الديني "القرآن الكريم والحديث الشريف".

هذا النص الذي يعتبره المسلمون من البديهيات الذي لا يقبل المناقشة حول مصدره فهو خطاب الشرع الذي يعبر عن الحقيقة المطلقة والمطلق لا ينسب الا إلى الله سبحانه وتعالى، لكن مع التطور الذي أحدثته العلوم حدث له ما حدث ، فهو الآخر طاله التغيير سواء من حيث القراءة أو نوعية المنهج خاصة مع عصر الحداثة ، التي بدورها غيرت الكثير من المفاهيم وزحزحت الكثير من القناعات والمرجعيات. فما مفهوم النص عموما؟ وعند دعاة الحداثة خصوصا؟ وهل يتوافق مفهومهم للنص مع مفهوم الأصوليون؟

الكلمات المفتاحية: (نص)؛ (قرآن)؛ (حداثة)؛ (أصوليين)، (دين)، (قراءة).

Abstract

One of the terms that occupied an important and large space in philosophical studies in general and linguistic studies in particular is the term "text", where its handling was known for a great development on the one hand and an intellectual, cognitive and methodological difference on the other. Religious "The Noble Qur'an and the Noble Hadith."

This text, which Muslims consider one of the axioms that does not accept discussion about its source, is the discourse of the Sharia that expresses the absolute truth, and the absolute is only attributed to God Almighty, but with the development brought about by the sciences, what happened to him happened to him, so he is the last to change whether in terms of reading or The quality of the curriculum, especially with the era of modernity, which in turn changed many concepts and displaced many convictions and references. What is the meaning of the text in general? And when advocates of modernity in particular? Is their understanding of the text compatible with the concept of fundamentalists?

KeyWords: (text); (Wedding); (modernity); (fundamentalists), (religion) , (reading).

*المؤلف المرسل

المقدمة:

اللغة العربية من أغنى اللغات ، وأوسعها اشتقاقا ، وأدقها تعبيراً ، صقلتها القرائح والعقول في الماضي بضعة عشر قرناً حتى جعلتها لغة الشعر والخطابة ، واصطنعها العلماء في مفردات الطب والكيمياء والرياضيات والفلسفة حتى جعلوها لغة العلوم والثقافة .

ورغم اتساع ومرونة اللغة العربية وغناها في المصطلحات والألفاظ إلا أن هذا الاتساع رغم فائدته لا يخلو في بعض الأحيان من الالتباس والإشكال تماماً كما هو في اللغات الأخرى ، لأن اللغة مهما كانت في جليل قيمتها إلا أنها تحمل مصطلحات غير واضحة وغير دقيقة أعنى متباينة ، وبهذا فإنه كلما كانت مصطلحات اللغة أقل وضوحاً كانت أكثر غموضاً وأكثر التباساً وعرضة لتعدد المفاهيم حولها ، والسبب يعود إلى تعدد الاختصاصات والاتجاهات والرؤى إذ أن كل واحد يريد أن يعطى مفهوماً محدداً للمصطلح ما انطلاقاً من طبيعة تخصصه ، أي أن تحديد المفهوم - مفهوم المصطلح - يكون انطلاقاً من الوظيفة التعريفية له .

ولعل من المصطلحات التي احتلت حيزاً هاماً وكبيراً في الدراسات الفلسفية عامة واللغوية على وجه الخصوص هو مصطلح " النص " حيث عرف تناوله تطوراً كبيراً من جهة واختلافاً فكرياً ومعرفياً ومنهجياً من جهات أخرى . والذي يهمنا في هذا البحث ليس النص فقط وإنما النص الملحق بالصيغة الدينية أي النص الديني " القرآن الكريم والحديث الشريف " باعتبار أن القرآن الكريم هو الوحي المتلو المتعبد بتلاوته ، والحديث هو الوحي غير المتلو المبين لأحكام القرآن والمقيد لمطلق هذه الأحكام ، النص الذي يعتبره المسلمون (خاصة الأصوليون) من البديهيات الذي لا يقبل المناقشة حول مرجعيته (مصدره الله) بسبب أنه يعبر عن منهج ربهم الذي خلقهم في أحسن تقويم ، وهدهم إلى الطريق القويم ، لكن مع مرور الزمن والتطور الذي أحدثته العلوم حدث له ما حدث ، فهو الآخر طاله التغيير سواء من حيث القراءة أو نوعية المنهج خاصة مع بعض مفكري العصر الحديث والمعاصر ، هذا العصر الذي شهد ثورة هائلة في العلوم والمعارف التي بدورها غيرت الكثير من المفاهيم وزحزحت الكثير من القنوات والمرجعيات .

والسبب الواضح الجلي الذي ساهم في ذلك هو ظهور فئات تلقفت ما كتبه الآخر عن دينه وكتابه ، فرأت هي الأخرى أن السبيل إلى النهوض هو سلوك نفس الطريق ، ورأوا أن نقد الآخر لكتابه هو تعبير عن الحرية التي تقود إلى التقدم ، فما دام القرآن الكريم نصاً مثله مثل النص المسيحي فلا حرج في أن يفحص وينتقد دون النظر إلى "قداسته" أو إلى أنه وحي منزل أنزله الله تعالى .

وفي ثقافة احتل النص الديني فيها - ولا يزال - مركز الدائرة يعد الكشف عن مفهوم النص (حيوي) كشفاً عن آليات إنتاج المعرفة ، وبما أن حضارتنا العربية الإسلامية حضارة النص - كما في مفهوم البعض - صار صعب علينا تحديد تعريف توافقي للنص لتعدد معايير التعريف مداخله و منطلقاته ، كما أن تعدد الأشكال والمواقع والغايات التي تتوفر فيما نطلق عليه نصاً ، فإنه وجب علينا انطلاقاً من هذا السياق الوقوف أمام الكم الهائل من المفاهيم

المختلفة باختلاف المناهج والتيارات ، وهنا كان من الضروري علينا البدء بالكشف عن الدلالة اللغوية والاصطلاحية لكلمة "النص" وعلاقته بمصطلحات أخرى تتقارب معه في المفهوم وربما في الهدف مثل مصطلح الخطاب.

I. مفهوم النص لغة واصطلاحاً:

١. تعريف النص لغة:

بالعودة إلى الأصل اللاتيني لكلمة " نص " في اللغات الأوروبية فإننا نجد كلمتي Texte Text مشتقين من Textus بمعنى النسيج Tissu المشتقة بدورها من Texere بمعنى نسج، فالأصل اللاتيني يحيل على النسيج ويوحي بالجهد والقصد ، ولعله يوحي أيضاً إلى الاكتمال والاستواء، أفليس النسيج مجموعة من العمليات التي يتم بمقتضاها ضم خيوط السدى إلى خيوط اللحمة لتتحصل على نسيج ما يُعتبر تنويجا لهذه العمليات؟ ثم ألا يعنى النسيج بمعناه الواسع الإنشاء والتنسيق في ضم الشتات والتنضيد(الأزهر الزناد، ١٩٩٣، ص ١١). هذا هو المعنى اللغوي للنص في الثقافة الغربية فما هو معناه يا ترى في ثقافتنا العربية الإسلامية؟.

النص كلمة ضاربة الجذور في تربة العربية لغة واصطلاحاً ، ففي اللغة تشير هذه المفردة إلى الرفعة والبروز الذي يسمح بالوضوح والظهور ، ومنه اشتقت كلمة المنصّة ، لأنها مكان النصّ أي الوضوح والظهور والرفعة (مجموعة من المؤلفين، ٢٠٠٦، ص ٤٧) .

وكما قلنا أن النص في اللغة معناه الظهور ، قال الزمخشري في أساس البلاغة في مادة ن ص ص : " الماشطة تنصُ العروس فتقعدها على المنصّة، وهي تنص عليها أي ترفعها . وانتص السنام : ارتفع وانتصب . ومن المجاز: نصصتُ الرجل إذا أحفيته في المسألة ورفعته إلى ما عنده من العلم حتى استخرجته. وبلغ الشيء نصه أي منتهاه"(الزمخشري، ١٩٩٨، ص ٦٧٥).

النص :رفعك الشيء ، نص الحديث ينصه نصا : رفعه وكل ما أظهر فقد نص ، وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجلاً أنص للحديث من الزهري أي أرفع له وأسند ، يقال نص الحديث إلى فلان أي رفعه ، وكذلك نصصته إليه ونصت الظبية جيدها: رفعته. والنص والنصيص السير الشديد والحث ولهذا قيل : نصصت الشيء رفعته ونص الرجل نصا إذا سألته عن شيء حتى يستقصى ما عنده ، ونص كل شيء: منتهاه (ابن منظور، ١٩٩٤، ص ٤٤١). وفي الحديث عن علي "رضي الله عنه وأرضاه" قال: إذا بلغ النساء نص الحقائق فالعصبة أولى ، يعني إذا بلغت غاية الصغر إلى أن تدخل في الكبر فالعصبة أولى بها من الأم ، يريد بذلك الإدراك والغاية . أما الأزهرى فقال: النص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها ، ومنه قيل : نصصت الرجل إذا استقصيت مسألته عن الشيء حتى تستخرج كل ما عنده ، وكذلك النص في السير إنا هو أقصى ما تقدر عليه الدابة(المرجع نفسه، ص ٤٤٢)، وفي حديث هرقل :ينصهم أي يستخرج رأيهم ويظهره ومنه قول الفقهاء : نص القرآن، ونص السنة على ما دل ظاهر لفظها عليه من الأحكام. وبهذا فمفهوم النص في اللغة العربية له أربعة معاني(المرجع نفسه، ص ٤٤٢):

*. الرفع: نص الشيء أي ارتفع ، ومنه سميت المنصة بذلك لارتفاعها.

*. الإظهار: نص الشيء أي ظهر وبان ومنه سميت الجبهة ناصيته لظهورها.

*. ضم الشيء إلى الشيء : نصصت الشيء أي وضعت بعضه فوق بعض.

*. أقصى الشيء ومنتهاه: وصلت لنص الشيء أي لنهايته وآخره.

وبهذا فالنص يدور على هذه المعاني التي ذكرنا وهي " الرفع ، والإظهار ، وجعل بعض الشيء فوق بعضه ، وبلوغ الشيء أقصاه ومنتهاه ، والتحريك ، والتعيين على شيء ما ، والتوقيف (المرجع نفسه، ص ٣٦٠). ولما كان من معاني النص الظهور والبروز وغاية الشيء ومنتهاه فإنه يشترك مع كلمات أخرى في هذه المعاني من مثل: فصاحة وبيان ، وحي وكتاب ، وكلام وقول وخطاب وبلاغة. وهي كلها تدل على الظهور والبيان ، والوضوح والبروز، و الكشف والتعرية، كما أن كلمة "بلاغة" تعني غاية الشيء ومنتهاه، وهو لا يعني أنه لا يوجد اختلاف بينها من الوجهة اللغوية إنما يعتبر " النص " أحص من كل واحدة من الكلمات السابقة ، فهو أحص من كلمتي البيان والبلاغة ، كما أنه أحص من كلمة كتاب، فالكتاب هو ما أدى إلى وجود النص ومنحه وظائفه ، والكتاب هنا هو القرآن الذي سالت ولا تزال أقلاماً في كتابة نصوص عنه ، فالكتاب أعم من النص، فالنصوص نادرة وعزيرة في كتاب شامل (أغضابنة الطاوس، ٢٠١٠، ص ١٣٤).

أ. النص اصطلاحاً:

إن المتصفح للكتابات العربية المعاصرة يلاحظ هاجساً ثقافياً بين جميع الدارسين وهو محاولة تحديد المفاهيم في ميادين العلوم الإنسانية على اختلافها ، وتعود إشكالية ضبط المفاهيم حسب الكثيرين إلى رغبة قومية تتمثل في تحديد معالم هويتنا العربية الإسلامية التي ظلت ونتمنى أن تبقى مدة طويلة من الزمن تتجاوزها رياح ثقافتنا العربية الإسلامية متمسكة بها إلى حد الإعجاب بل أكثر من ذلك إلى حد التقديس ، ولهذا إذا نظرنا إلى كل ما كتب وقيل عن مفهوم النص نجد اختلافاً كبيراً بين المفكرين (عرب كانوا أو غرب) كل حسب وجهته ومنهجه ومنطلقه الفكري ، ولكن رغم صعوبة هذا المفهوم إلا أننا سنحاول جاهدين إيراد بعض التعريفات التي نتمنى أن تكون كفيلة بإيضاح وتبيان اللبس الذي طال هذا المفهوم وما زال إلى اليوم.

فالنص عند النحاة يطلق للدلالة على "الحدث والقيام بالعمل ولا يعنى الأمر الناتج عنه أو الحاصل به، غير أن هذا الحدث غير مقترن بزمن" (عبد القادر شرشار، ٢٠٠٦، ص ١٧) أما عبد المالك مرتاض " يرى أن النص شبكة من المعطيات اللسانية والبنوية والإيديولوجية تتضافر فيما بينها لتكون خطاباً ، فإذا استوى مارس تأثيراً عجبياً من أجل إنتاج نصوص أخرى ، فالنص قائم على التجددية بحكم مقروئيته ، تبعاً لكل حالة يتعرض لها في مجهر القراءة" (المرجع نفسه، ص ٢٥) فالنص من حيث هو ذو قابلية للعطاء المتجدد بتجدد تعرضه للقراءة" وبهذا فالنص عنده مرتبط بالمتلقي أو القارئ الذي يمنحه صفة التجدد ويعيد تكوينه وتشكيله في كل مرة يقرأه فيها.

أما الدكتور أديب الصالح يرى بأن النص هو المراد به القرآن نفسه ، إذ لفظة (القرآني) صفة للنص، والنص جمعه نصوص حيث يقول: " نعني بالنصوص: نصوص الكتاب والسنة ، لأن مرد سائر الأدلة الشرعية إليها: فالكتاب والسنة هما أساس التشريع وقوام أحكام الإسلام . وما عداهما من الأدلة مستنبط منهما ومآله إليهما" (محمد أديب الصالح، د.ت)، ص ٥١، ٥٠).

والناظر في التاريخ الإسلامي منذ نزل القرآن الكريم يجد المسلمين يذكرون لفظ القرآن الكريم ولا يتعامل أحد منهم بلفظ النص القرآني أو النص الديني أو النص المقدس واستعمال مصطلح (النص القرآني) ، أو (النص) بديلاً عن القرآن الكريم، أو الآية الكريمة في الخطاب الديني، عادة جديدة برزت في عصر الحداثة ، ودرج عليه دعاة الحداثة في كتاباتهم ودراساتهم، خرجوا بها عن المفهوم الإسلامي لهذا المصطلح، وهو أمر عادي لأنه من باب الاجتهاد وهو اجتهاد اقتضته متطلبات عصرهم الحالي ، وهو ما سنتطرق له بالتفصيل في هذا المبحث.

ب. النص مقابل الخطاب:

أصبح التمييز بين الخطاب والنص يطرح إشكالا كبيرا نظرا لتضارب الآراء واختلاف التصورات، ولقد تشعبت الرؤى حول ثنائية (النص والخطاب) حتى عددهما البعض مترادفين، غير أن المفهوم الشائع للنص هو ما جاء في الموسوعة العالمية للمفاهيم الفلسفية التي عرفت النص على انه: "خطاب مكتوب ، ثابت" وهذا ما ذهب إليه "بول ريكور" في قوله: "نطلق كلمة (نص) على كل خطاب تم تتيبته بواسطة الكتابة"(ص ١٩٦١، ص ٣٠٤) فالعلاقة بين النص والخطاب ترتبط بالكتابة التي تصبح أمراً مؤسسا للنص ومقوما له. كما نجد "شلوميت" يربط النص بالقراءة ، إذا يعتبر أن " النص هو ما يمكن قراءته"(سعيد يقطين، ١٩٨٩، ص ١١٣٦) فمن وجهة النظر هذه فالنص يرتبط بالكتابة والقراءة ، أما الخطاب فيرتبط بالبعد الاجتماعي لأن الخطاب يمثل فضاء لتبادل الآراء.

كما نجد أن مستوى التحليل هو الآخر يختلف بين المفهومين مفهوم النص والخطاب، فلا يمكن تحليل الخطاب بمعزل عن المقام ، لأنه فعل أُجْز في مقام معين ، وزمان ومكان معينين ، في حين أن النص مجرد عن كل هذه العوامل فمجال تحليل الخطاب يُعنى باللغة المنطوقة ضمن السياق في حين أن مجال تحليل النص يتعلق بتحليل اللغة المكتوبة ، وهذا ما ذهب إليه " Deborah Schiffrin " في كتابه " Discours Marks " غير أنه استخدم مصطلحات تحليل الخطاب بنفس دلالتها في تحليل النص ، وبطريقة التحليل نفسها ، ويتفق معه "ديفيد كريستال Devid Kristal " لكنه يعود ويؤكد أن التحليل سواء كان موضوعه نصا أو خطابا فإنه يشمل كل الوحدات اللغوية المنطوقة والمكتوبة مع تحديد الوظيفة التواصلية(صبحي ابراهيم الفقي، ٢٠٠٠، ص ٣٥).

ولكن هذا الاختلاف والتفريق بين المفهومين أو المصطلحين ليس واضحا بالقدر الذي يكشف لنا الالتباس والغموض ، لأنه قد يستعمل كل منهما (النص و الخطاب) بمعنى أوسع بكثير ليشمل جميع الوحدات اللغوية التي لها وظيفة اتصالية محددة سواء كانت هذه الوحدات مكتوبة أو محكية ، لأننا في الكثير من الأحيان نجد بعض المفكرين يتحدثون عن الخطاب الشفهي (الحكي) أو المكتوب ، ومنهم من يتحدث عن النص المحكي أو المكتوب . وهنا نجد " هوثرن" يعلق على هذه المفارقة بين النص و الخطاب ويقول: " يعالج " ستابس Michael Stubbs " مفهومي النص والخطاب وكأنهما مترادفين ، لكنه يلاحظ أنه في استعمالات أخرى يكون النص مكتوبا بينما يكونا الخطاب محكيا ، وقد لا يكون النص تفاعليا بينما يكون الخطاب كذلك...وقد يكون النص طويلا أو قصيرا لكن الخطاب قد يوحي بطول معين ، ويتميز النص بانسجام في الشكل والصيغة ، بينما يطبع الخطاب انسجام

أعمق من حيث الدلالة والمعنى ، وفي الأخير يلاحظ "ستابس" أن هناك من المنظرين من يفرق بين مكون اللغة النظري المجرد والتحقق النفعي لهذا المكون ، ولو أنهم لا يتفقون أيهما يمثل مفهوم النص " (سارة ميلز، ٢٠٠٤، ص٣) .

ومن الآراء التي حاولت أيضا كشف الفرق بين ثنائية (النص، الخطاب) رأى "جوليا كريستيفا Julia Kristeva" التي رأت أن النص أكثر من مجرد خطاب أو قول إذا أنه موضوع لعديد من الممارسات السيميولوجية ، وبالتالي فالنص عند "كريستيفا" يتجاوز الخطاب ، ويتميز عنه بخاصية الإنتاجية ، لأنه قابل للتفكيك وإعادة البناء ، مما يجعله صالحا لأن يعالج بمقولات منطقية ورياضية كما أنه يمثل فضاء لاستبدال النصوص وذلك عن طريق التناس (أغضابنة الطاوس، ٢٠١٠، ص١٤٩) .

ومها يكن من أمر فإن الفروق التي ينعقد عليها الإجماع نظريا هي (بشير ابرير، ٢٠٠٧)، (ص٧٧):

- * أن الخطاب أوسع من النص ، والنص في أصله هو المكتوب والخطاب هو المنطوق.
- * يتميز الخطاب عادة بالطول ، وذلك أنه في جوهره حوار أو مبادلة كلامية ، أما النص فيقصر ليكون كلمة مفردة مثل (أحد) ، ويطول حتى يصبح مدونة كاملة مثل (رواية).
- * يرتبط ميل الخطاب عادة إلى الطول و الامتداد والحوارية بتمكينه من التعبير عن وجهات النظر والمواقف المختلفة.
- * الخطاب نتيجة للغة الشفوية بينما النص نتيجة الكتابة ، أو كما قال " روبر اسكاريب" اللغة الشفوية نتيجة خطابات (des discours) ، بينما الكتابة تنتج نصوصا (des textes) .
- * يفترض الخطاب وجود السامع (المتلقي) الذي يتلقى الخطاب بينما يتوجه النص إلى متلق غائب يتلقاه عن طريق القراءة.

II. مفهوم النص بين علماء الأصول ودعاة الحداثة:

١. مصطلح "النص" عند علماء الأصول:

يعد علم أصول الفقه من العلوم الإسلامية المبتكرة لأنه يقوم على استنباط النصوص الشرعية ، والبحث في مضامينها ، جامعاً بين النقل والعقل ، باحثاً عن القواعد الكلية التي تتفرع منها الأحكام الفقهية الفرعية، فلا غرو إذا كان هذا العلم محط أنظار الفقهاء والعلماء والمفكرين أصحاب العقول النيرة والفكر النير في كل وقت من الأوقات وعصر من العصور.

وإذا انتقلنا إلى مفهوم النص في الاصطلاح العربي اكتشفنا عدم اهتمام القدماء اهتماما يذكر بمفهوم النص باستثناء الإمام الشافعي ، بوصفه أول من تطرق إلى مفهوم النص في نظريته عن البيان ، حيث يذكر عن النص أنه " ما أتى الكتاب إلى غاية البيان فيه ، فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره" وعلى ذلك فالنص ما " لا يحتمل إلا معنى واحداً " أو هو " ما رفع في بيانه إلى أبعد غاياته" (ملفوف صالح الدين، د.ت)، (ص١٣٢).

كما عرف الشافعي النص بأنه : "المستغني بالتنزيل عن التأويل ، فالنص عنده هو الكلام الذي لا يحتاج إلى تأويل لأن ظاهره يغني عن ذلك . كما يقصد الأصوليون والفقهاء بعبارة النص الصيغة المكونة من المفردات والجمل ، وقد سميت الألفاظ الدالة على المعاني عبارات لأنها تفسر ما في الضمير المستور ، كما يقصدون بالنص كل ملفوظ

مفهوم المعنى من الكتاب والسنة سواء كان ظاهراً أو مفسراً ، حقيقة أو مجازاً ، خاصاً أو عاماً ، فللنص عند القدماء نحة كانوا أو أصوليون فقهاء... معاني تختلف عما هي عليه اليوم في الثقافة العربية المعاصرة" (محمد بن إدريس الشافعي، (د.ت)، ص ١٤).

وتعد الرسالة للإمام الشافعي رضي الله عنه أول كتاب في علم الأصول وهو ما يعني أن الإمام الشافعي أول عالم غني بالنصوص ، لأن عينه وبصيرته كانت على استنباط الأحكام من مضامين الآيات الكريمة والأحاديث النبوية. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في الرسالة: "فجماع ما أبان الله لخلقه في كتابه ، مما تعبدكم به ، لما مضى من حكمه جل ثناؤه ، من وجوه: منها: ما أبانه لخلقه نصاً. مثلُ جمل فرائضه ، في أن عليهم صلاة وزكاة وحجاً وصوماً، وأنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ونص الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وبين لهم كيف فرض الوضوء ، مع غير ذلك مما بيّن نصاً..." (المرجع نفسه، ص ٢١).

ولالإمام الشافعي باب في الرسالة بعنوان: (باب الفرائض التي أنزل الله نصاً) ثم أورد تحت هذا الباب آيات القذف واللعان والصيام.. وكان رحمه الله تعالى يأتي ببعض الإيضاحات بعد كل آية .

ثم ذكر الإمام الشافعي رحمه الله تعالى عنواناً آخر تحت هذا الباب : "الفرائض المنصوصة التي سنّ رسول الله معها" ثم أورد آية الوضوء وعرض أحاديث نبوية تبين مجمل الآية ، مستدلاً لكل ما عرض له من أحكام فقهية، لأن الآية الكريمة لم تبين تفصيل الأحكام فبينت السنة ذلك. ثم عنون لـ "الفرض المنصوص الذي دلت السنة على أنه إنما أراد الخاص" وأورد آيات المواثيق ، ثم أطنب رضي الله عنه ببيان هذا الخاص الوارد في السنة النبوية (المرجع نفسه، ص ١٤٧. ص ١٦٥. نقلاً بتصريف).

تلك بعض الدلائل على أن النصوص من الكتاب والسنة قد نالت من إمام الأصوليين عناية فائقة ؛ لأهميتها من بيان الأحكام للعباد ، لأن الشريعة الإسلامية إنما جاءت لمصالح الأنام، ولهذا نجد أن الإمام الشافعي دائماً يؤكد فيقول "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة وجميع السنة شرح للقرآن ، وجميع القرآن شرح لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا... كما أنه أفضل من كل كلام سواه ، فعلموه أفضل من كل علم عداه" (الزركشي، ٢٠٠٦، ص ٦).

وما هذه العناية بنصوص الكتاب والسنة من الإمام الشافعي رضي الله عنه إلا لمكانة النص في علم الأصول ، فالأصول دون معرفة دلالات الأصول لا يكون من الأصول بحال.

كما أن للنص مفهوماً آخر عند الأصوليين إذ يستعملون هذا اللفظ فيما ورد في بحوثهم من اصطلاحات مثل: عبارة النص، إشارة النص... الخ يفهم منها أنهم يطلقونه على كل ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة سواء أكان ظاهراً أو نصاً أو مفسراً ، أي أن كل ما ورد من صاحب الشرع فهو نص ، ويبدوا أن الدلالة كانت المعيار الوحيد الذي احتكم إليه الأصوليون لأول وهلة ، ولكن تلك الدلالة تكون مرتبطة باللفظ المركب سواء أكان منطوقاً أو مكتوباً (ملفوف صالح الدين، (د.ت)، ص ١٣٢).

من هذا نفهم أن معنى النص عند علماء الأصول ما يعبر عنه بالكتاب "القرآن" والسنة النبوية "الحديث الشريف".

٢. مصطلح "النص" عند دعاة الحداثة:

لم يستقر الدارسون على تحديد واضح لمفهوم الحداثة، ولا يهمني في هذا المقام التعريف بها لما في تعريفها من هدر لأسطر البحث، والغوص في تهويمات النقاد، التي ما برحت تتجاذب في تأطير الحداثة، اصطلاحاً، وتفسيراً والأهم هو: ما الغاية التي جاءت بها الحداثة؟ وماذا تريد؟

"جاءت الحداثة بمشروعها الحضاري لتخلص الإنسان من أوهامه وتحرره من قيوده وتفسر الكون تفسيراً عقلانياً ذاتياً، ورأت الحداثة أن مثل هذا المشروع لا يتم ما لم يقطع الإنسان صلته بالماضي ويهتم باللحظة الراهنة العابرة، أي بالتجربة الإنسانية كما هي في لحظتها الآنية. وهكذا احتفت الحداثة بالصيرورة المستمرة المتشكلة أبداً وغير المستقرة على حال، لكنها أيضاً كانت تسعى في المقابل إلى إرساء الثوابت القارة التي تحكم الإنسان وتحكم تجربته كما تحكم الصيرورة الثقافية فتفسر المتغيرات العابرة وتمنح مشروعية تبريرية عقلانية لحالة الفوضى التي تتسم بها التجربة الآنية. من هنا جاء التقابل الضدي بين الثابت والمتحول كإمكانية تفسير التناقض الواضح بين اللحظة العابرة والقانون الثابت الذي يتحكم بها ويمنحها نظاماً مستقراً أبدياً" (ميحان الرويلي، سعد البازعي، ٢٠٠٢، ص ٢٢٤) فتولدت المنتجات النصية والسردية والقراءات التي ألقت الضوء على تراثنا القديم بمحاولاتها التي تريد من خلالها تقويض نظام اللاعقل، ونقد مفعولات اللامعقول وامتداداته المتجذرة في الاجتماع والسياسة والمعرفة... الخ، من خلال القراءة الجديدة للنصوص الدينية الإسلامية لتجديدها وتحديد الفكر الإسلامي لبواب حركة العلم والعقل معاً.

وبهذا فالنص في اصطلاحات المحدثين العرب، قد تنوعت مفاهيمه بتنوع التخصصات العلمية، وتنوع الاتجاهات والمدارس المختلفة، وقبل استعراض تلك المفاهيم تجدر الإشارة إلى انتقاداً وجهته "نحلة الأحمـد" للمهتمين بمفهوم النص في الدراسات العربية المعاصرة حيث تقول "إن مفهوم النص الذي تشتغل عليه الدراسات العربية المعاصرة مفهوم أجنبي لمصطلح غُرب خطأ، ولم يجد ما يطابقه في اللغة العربية... فالذين يقولون بالنص يحصرون معناه بالظهور، وهو عندهم الكتاب والسنة تحديداً، والنص يعني الظهور التام للمعنى ونفى التأويل، وهم بذلك ينفون وجود نص غير الكتاب والسنة فلماذا نقول النص الأدبي، والنص العلمي، والنص القانوني؟ إذا المصطلح الذي نستخدمه يحيل إلى مفهوم غربي، والذين يؤولون لا يقولون بوجود النص، وفي أحسن الحالات يقولون بندرته فكيف يعنونون كتبهم بعنوانات مثل (النص، نقد النص، النص والحقيقة، النص والتأويل) ويقصدون الكتاب والسنة؟ وإلا فما يشتغلون عليه نص ولكنه نص بالمعنى الغربي أي نسيج - كما رأينا ذلك من قبل - وهو ما يفهمه الناس اليوم ويحيلون عليه، إذا لا وجود لـ (النص) في الثقافة العربية" (نحلة فيصل الأحمـد، ٢٠٠٢، ص ٣٦، ٣٧).

إن ما أشارت إليه نخلة الأحمـد فيما يتعلق بأولئك الباحثين المعاصرين في علوم القرآن. وفي النص العربي وفلسفته يستدعي منا التساؤل: ماذا يقصدون بالضبط حينما يستعملون كلمة (نص)، أو كلمة خطاب؟ أما عن قولها: أن الناس يفهمون النص بالمفهوم الغربي فيستدعي منا التوقف، لأن أغلب الناس يفهمون من النص أنه الكلام الحرفي المنسوب إلى منشئه بقطع النظر عن معناه، غير أنه يكثر انصرافه إلى الكلام المرتفع عن الكلام العادي أو عن المحادثة، خصوصاً الديني أو الأدبي أو العلمي، إضافة إلى ذلك فإن كلمة (نص) قد تطورت دلالياً في نطاق العربية

بإطلاقها على الكتاب والسنة إجمالاً بغض النظر عن وضوح المعنى أو قطيعته ، ثم تطورت أيضاً بإطلاقها على كلام الفقهاء في قولهم (نصت الفقهاء على كذا) كما رأينا ذلك من قبل في التعريف اللغوي للنص، ومن ثم شاع إطلاق كلمة نص في أوائل القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين على نص الشاعر وغيره من النصوص، ومع بروز الحداثة دخلت العربية مفاهيم مختلفة للنص مرتبطة بتلك الاتجاهات (ملفوف صالح الدين، (د.ت)، ص ١٣٣).

ومها يكن من أمر فإن من أبرز مفاهيم النص في الدراسات العربية المعاصرة مفهوم نصر "حامد أبو زيد" الذي يرى أن قراءة النص الديني قراءة جيدة ، ناقدة واعية من شأنه أن يقربنا من صياغة وعي خاص بنا وبعاداتنا وتقاليدنا ، وعي يصنع لنا هويتنا ويعطى لنا خصوصيتنا ، إنه لعمرى الوعي العلمي بترائنا . حينئذ سنصبح قادرين على المشاركة في صنع الحضارة أو بالأحرى في معركة الحضارة التي غابت عنا ، كل هذا يكون بالبحث عن مفهوم النص " لأن البحث عن مفهوم النص ليس مجرد رحلة فكرية في التراث ولكنه فوق ذلك بحث عن " البعد" المفقود في هذا التراث ، وهو البعد الذي يمكن أن يساعدنا في الاقتراب من صياغة "الوعي العلمي" بهذا التراث"(نصر حامد أبو زيد، ١٩٩٠، ص ١٢).

ولعل كتابه " مفهوم النص " خير نموذج يمكن الحديث عنه في هذا المقام لأن صاحبه على الرغم من اعتماده على ما جاء في المعاجم والكتب العربية القديمة ، إلا أنه يمكن القول إن مفهوم النص عنده قد تم طرحه على مستويين: المستوى الثقافي و المستوى الدلالي (السيمائي) ، ففي المستوى الثقافي يري فيه أن " النص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي"(أغصانة الطاوس، ٢٠١٠، ص ١٥٢) ونجد أن هذا المفكر يؤكد ذلك في كتبه التي كتبها . "نقد الخطاب الديني" ، "مفهوم النص"، "النص، السلطة ، الحقيقة". إذ يقول في هذا الأخير: "ليست النصوص الدينية نصوصاً مفارقة لبنية الثقافة التي تشكلت في إطارها بأي حال من الأحوال ، والمصدر الإلهي لتلك النصوص لا يلغي إطلاقاً حقيقة كونها نصوصاً لغوية بكل ما تعنيه اللغة من ارتباط بالزمان والمكان التاريخي والاجتماعي"(نصر حامد أبوزيد، ١٩٩٥، ص ٩٢) وهذا ما يظهر لنا المستوى الدلالي الذي يريد من خلاله قراءة النص الديني بحكم أنه نص لغوي. فرغم كونه (النص) خطاباً إلهياً من حيث المصدر لا يعني عدم قابليته للتحليل لأنه خطاب لغوي تجسدي في لغة إنسانية وهي اللغة العربية بكل إشكاليات سياقها الاجتماعي والثقافي والتاريخي، ثم إن العديد من أحكام القرآن أحكام تاريخية مرتبطة بزمانها المحدد...ولهذا يمكن الاجتهاد بشأنها وشأن ما يماثلها بتغير الأوضاع والأحوال(أحمد رحامي، ٢٠٠٩، ص ٧٩).

بل أكثر من ذلك انه يمثل مركز الحضارة العربية الإسلامية وهنا يقول " إن القرآن نص لغوي يمكن أن نصفه بأنه يمثل في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية نصاً محورياً. وليس من قبيل التبسيط، كما يشير نصر حامد أبو زيد، أن نصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة "النص"(نصر حامد أبوزيد، ١٩٩٠، ص ١١) " لأنها ببساطة حضارة أنبتت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل النص فيه.

والملاحظة التي لاحظناها على المفكر "نصر حامد أبو زيد" أنه يلح دائماً على الرجوع إلى النص الديني ، وذلك بقراءته قراءة موضوعية بفضلها تنتقل من التأخر والجمود إلى التقدم والانفتاح وهنا يقول "...والبحث عن هذا

المفهوم وبلورته وصياغته لا يمكن أن يتم بمعزل عن إعادة قراءة " علوم القرآن " قراءة جديدة باحثة منقبة(المرجع نفسه، ص١٣).

ولقد كان غرض أبو زيد من إثارة هذا الطرح والذي هو إعادة قراءة النص الديني، هو الرد على الذين جعلوا من علوم القرآن والحديث علوما ناضجة كاملة "مقدسة" ولا يمكن لأي كان أن يمس "قداسة" هذه النصوص ولا حتى أن يفكر فيها، لذا نجده في الكثير من المواطن يؤكد ويقول: " أن موقف الخطاب الديني المعاصر من علوم القرآن وعلوم الحديث كذلك هو موقف التردد والتكرار. إذا يتصور كثير من علمائنا أن هذين النمطين من العلوم يقعان في دائرة العلوم التي " نضجت واحتترقت " حتى لم يعد فيها للخلف ما يضيفه إلى السلف...ويضيف القول الذي قاله السيوطي: العلوم وإن كثر عددها وانتشر في الخافقين مددها ، فغايتها بحر قعره لا يدرك، ونهايتها طول شامخ لا يستطاع إلى ذروته أن يسلك. ولهذا يفتح لعالم بعد آخر من الأبواب ما لم يتطرق إليه من المتقدمين الأسباب"(المرجع نفسه، ص١٣) هذا من جهة ، ومن جهة ثانية كان غرضه الكشف عن المرجعيات المعتمدة من طرف بعض المفكرين والمصلحين في قراءتهم للنص القرآني ليستطيع بذلك إبراز الفوارق والتقاطعات بين ما كان سائدا من مناهج في تفسير القرآن الكريم وما حملته بعض المناهج الحديثة من توجهات جديدة غير معهودة في تفسير النصوص في مجال قراءة النص الديني.

كل هذا لا يكون حسبه إلا بالتأويل لأنه ببساطة يمثل آلية من أهم آليات القراءة في إنتاج المعرفة وبالتالي الدعوة إلى تأويل النص الديني هو الدعوة إلى قراءة التراث قراءة واعية ذات عقلانية متميزة قائمة على حس تاريخي وآخر نقدي بمعالم تراثنا المجيد. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: ألم يقرأ القدماء النص الديني ويؤولوه ؟ أم أن اعتمادهم على المنقول في الكثير من قراءتهم وتفسيراتهم كان سببا في عدم فهمنا لهم ؟ أم أن السبب أن لكل عصر ظروفه وبالتالي اجتهاداته وقراءاته الخاصة به ؟ أم أن السبب يكمن في أن القدماء والسلف اجتهدوا حول قراءات غيرهم فكان اجتهادهم "اجتهاد الاجتهاد"أي أن اجتهاداتهم لم تكن حول النص مباشرة كما هو الحال مع القراءات المعاصرة بل كانت حول اجتهادات غيرهم من علماء عصرهم؟ .

ولهذا كان من بين أهم النتائج التي وصل إليها نصر حامد أبو زيد أمان(أحمد رحامي، ٢٠٠٩، ص٨٠):

- الأول هو : نزع القداسة عن القرآن الكريم خاصة والنص الديني عامة ، وتحويله من نص ديني له خصوصيته إلى نص قابل للنقد.

- أما الثاني : نزع ثبوت الدلالة عن النص نهائيا وتحويله إلى نص متغير الدلالة حسب الظروف التاريخية للقارئ .

كل هذا كان دليلا وبرهانا يستعمله أصحاب المشاريع المعاصرة في القول أن مناهج الأمس "مناهج السلف" قديمة قدم عصرهم وظروفهم لا تستطيع مواكبة عصرنا وظروفنا وبالإضافة لقدمها فإنها تغيب القارئ في الكثير من الأحيان رغم أنه أداة فاعلة وطرف أساسي في إنتاج المعنى الذي يحمله النص. هذا بعض ما تركه لنا "نصر حامد أبو زيد " من قراءته للنص الديني.

أما القراءة الأخرى التي أثارت الكثير من الجدل هي قراءة "علي أحمد سعيد المعروف بأدونيس" التي تأتي قبل قراءة "حسن حنفي" وبعد قراءة "محمد أركون" و "محمد أحمد خلف الله" ، أدونيس كغيره من المفكرين والقراء المعاصرين كان له منهج خاص وقراءة فريدة من نوعها تلخصت في وجوب إعادة قراءة النص الديني عامة و القرآني خاصة باعتبار أن هذا النص نصا فينيقيا قديما ، وأهم النتائج التي توصل إليها (المرجع نفسه، ص ٩٥):
* رفض الانتماء الإسلامي والعربي جملة واحدة.

* اعتبار النص القرآني نصا فينيقيا وبذلك لا يؤدي النص القرآني دوره إلا إذا قرئ كما تقرأ النصوص الفينيقية.

* نفي الدين من واقع الأمة وتصورها ، واعتباره نقطة عار في وجه الحضارة العربية أمام الحضارة الغربية.
أما المفكر "حسن حنفي" فهو الآخر جاد بما جاد من قراءات تصب في هذا الموضوع (قراءة النصوص الدينية) ، فكانت قراءته مثل قراءة "أدونيس" وربما أكثر عنفوانا منها ، لأسباب كثيرة منها: أن منهجه شمل إعادة قراءة النص الديني من منطلق تراثي (كون هذه النصوص نصوص تراثية لا غير) ، ليس هذا فقط وإنما تعدى ذلك إلى أن العقيدة والوحي والنبوة والرسالة والإيمان والغيب وغيرها من مفاهيم ثوابت الدين ومصطلحاته مجرد أمور تافهة لا تعدو أن تكون اصطلاحات أدبية و تعابير إنشائية لا تعبر عن الواقع (المرجع نفسه، ص ٩٧).

ويعرفه المفكر "طه عبد الرحمان" فيقول: "إن النص هو كل بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات..." ("طه عبد الرحمان، ٢٠٠٠، ص ٣٥) وما يركز عليه المفكر في هذا المقام هو مقام اللغة حيث أن التراكيب بين ألفاظ وعبارات وجمل النص المرتبطة بعلاقات معينة هي ما تشكل لنا ما نطلق عليه نصا ، أي أن اللغة والعلاقات التي تفرزها هي ما يشكل بنية النص.

أما عبد الملك مرتاض فيري أن النص "لا ينبغي أن يحدد بمفهوم الجملة ، ولا بمفهوم الفقرة التي هي وحدة كبرى لمجموعة من الجمل، فقد يتصادف أن تكون جملة واحدة من الكلام نصا قائما بذاته مستقلا بنفسه، وذلك ممكن الحدوث في التقاليد الأدبية..." "كما نجده يستند إلى نظرية القراءة في تحديد مفهوم النص فيقول "النص قائم على التجددية بحكم مقروئيته ، وقائم على التعددية بحكم خصوصية عطائته تبعا لكل حالة يتعرض لها في مجهر القراءة..." (عبد القادر شرشار، ٢٠٠٦، ص ١٧).

لكن قراءة النص الشرعي في تداولاتنا محكومة بأصل عام يمثل "مرجعية" لها وهو: أن تكون على "معهود العرب في خطابها" و "مسالكها في تقرير معانيها" و "منازعتها في أنواع مخاطباتها" وأن يفهم وفق مدلوله العربي، الذي يتبادر إلى الذهن، من دون لي ولا إغراب، ولا تعطيل لمغزى، أو إقحام لمعنى؛ لأن "لسان العرب هو المترجم عن مقاصد الشارع"، ومن ثم فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة "فلا يتكلف في فهمه فوق ما لا تحتمله ألفاظه، ولا يدل عليه استعمال تراكيبه، أو أن تُحمّل دلالة على ما لا تقتضيه أعرافه، يقول الإمام الشاطبي: "لا بد في فهم الشريعة من إتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرفٌ مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يُجرى في فهمها على ما لا تعرفه، وهذا جارٍ في

المعاني والألفاظ والأساليب... وإذا كان كذلك فلا يستقيم للمتكلم في كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلف فيهما فوق ما يسعه لسان العرب. وليكن شأنه الاعتناء بما شأنه أن تعني العرب به، و الوقوف عند ما حدّته، ويبين في موضع آخر أنه لا بد لمن أراد الخوض في علم القرآن والسنة من "معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها" و"إلا وقع في الشبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بمجدة المعرفة" (عبد الفتاح الخطيب، (د.ت)، ص ٢، ٣) انطلاقاً من هذا السياق نتساءل: هل القراءة التي قدمها دعاة الحداثة حول النص الديني راعت معهود العرب ومدلولاتهم؟ أم أنها جاءت بطريقة جديدة تختلف عن معهودهم؟.

إن الناظر المتمعن للكتابات العربية الإسلامية في الآونة الأخيرة يلاحظ بجلاء أن الهاجس الذي يجمع أغلب الدراسيين هو إشكالية ضبط المفاهيم لما تحوزه من أهمية كبرى في عمليات بناء وتأسيس هذا الفكر أو ذلك. ومن بين المفاهيم التي أثّر الجدل حولها هو مفهوم النص عموماً، والقرآن على وجه الخصوص، ولعل السبب يعود للمكانة التي أصبح يحتلها في الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة. فمسألة فهم النص وقراءته أصبحت على رأس قائمة الاهتمامات المتداولة اليوم من قبل المفكرين عرباً كانوا أو غرباً، ضف إلى ذلك أن احتكاك المفكرين العرب بالثقافة الغربية وتغلهم علومها ومعارفها، مفاهيمها ومصطلحاتها، طرقها ومناهجها أحدث أثراً على بعض المفكرين العرب وعلى رؤيتهم وتصوراتهم لمفهوم النص الذي أصبح نقطة اختلاف بينهم، فمنهم من يرى أنه المحور والأساس الذي يجب أن نعتمد عليه في بناء المعرفة الإسلامية، ومنهم من يرى أن سلطته (سلطة النص) هي التي وقفت كحاجز أمام تطور الفكر الإسلامي ورفقه، فعُدو التحرر من هذه السلطة (سلطة النص، سلطة التراث) أمر لا مفر منه، كما عدو الاتجاه نحو الغرب (الحداثة) والاستفادة من منهجياته ونظرياته لقراءة النص الديني وفهمه أمر واجب ومحتوم أيضاً. وبذلك كانت الحداثة ملجأ للكثير من مفكرينا باعتبارها "عقلنة وتنظيم وضبط للحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ضبطاً عقلانياً" (باسم علي خريسان، ٢٠٠٤، ص ٢١، ٢٢) أي أنه لا سلطة تعلو فوق سلطة العقل، وبذلك فالإنسان من منظور الحداثة هو ذلك الفرد الحر في إرادته وفكره وعقيدته الذي لا يخضع لأي سلطة سوى سلطة العقل، وعندها يصبح الدين في الفكر الحداثي خارج عن اللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه، أو المسكوت عنه، والعقل صاحب السلطة الكاملة فله الحق أن يقبل أو يرفض ما يشاء من الدين، وهنا أصبحت لا سلطة للدين ولا سلطة للنص الديني (القرآن والسنة) على العقل الإنساني (حسب النظرة الحداثية)، وعليه فإن مقولة "لا اجتهاد مع النص" أصبحت لا قيمة لها مع ظهور الحداثة لأنها ببساطة تتعارض مع مبادئها (العقلانية) وأفكارها، ففي حين الحداثة تدعوا على الحرية الفردية: فإن مقولة لا اجتهاد مع النص هي دعوة تبجيل وتقديس النص الديني على حساب العقل، وبالتالي فهذه المقولة من منظور الرؤية الحداثية فيها نوع من التعسف والتضييق على العقل. لكن السؤال المطروح هنا هو: هل النص الديني (القرآن والسنة) مثله مثل النصوص الدينية الأخرى حتى نطبق عليه ما طبق على النصوص الأخرى؟ ومنه على أي مبدأ وعلى أي أساس تعامل الحداثيون مع النص الديني؟.

٣. كيف نقرأ النص الديني عند دعاة الحداثة:

تعتبر مسألة قراءة النص الديني من بين المسائل الرائدة في العالم العربي الإسلامي التي اتخذت من التراث الإسلامي أرضية خصبة للتأسيس لمقاربة (مقاربات) علمية نستطيع من خلالها تشكيل رؤية جديدة وتصور مختلف يعتمد على آليات معرفية ومنهجية جديدة ومختلفة هي الأخرى (حديثه) في فهم النص الديني وفك أسرارهِ والوصول إلى حقيقته، وبالتالي فمعرفة النص الديني وماهيته والغاية منه، وانعكاساته على الإنسان والمجتمع لها أهمية كبرى في الخطاب الفلسفي المعاصر عموماً والعربي الإسلامي على وجه الخصوص وعند محمد أركون على وجه أخص، وباعتبار أن النص الديني يحتوي حقيقة (حقيقة الخالق ووجوده، حقيقة الكون، حقيقة المخلوق) فالإنسان مكفول باكتشاف هذه الحقيقة عبر وسيلة واحدة هي قراءة هذا النص الديني أولاً، وفهمه ثانياً، واكتشاف معانيه ثالثاً، من أجل الاستفادة منه.

والمعروف في التداول العربي الإسلامي أن النصوص الدينية هي تلك التي مصدرها مرتبط بالوحي الإلهي وهي ثلاثة نصوص (مجموعة من الباحثين، ٢٠٠٦، ص ٦، ٧):

* القرآن الكريم الذي هو كلام الله سبحانه وتعالى الغير مخلوق والذي نزل به أمين الوحي جبريل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربية المعجزة المؤيدة له، المتحدي به العرب، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر والمبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس.

* الحديث القدسي: ما نقل إلينا عن النبي صلى الله عليه وسلم مع إسناده إياه إلى ربه عز وجل، والفرق بين الحديث القدسي والقرآن "أن القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلي، أما الحديث القدسي فهو ما كان لفظه من عند الرسول ومعناه من عند الله بالإلهام أو المنام".

* الحديث النبوي: وهو قول الرسول وفعله وتقريره وهمه وعزمه، والأحاديث النبوية تدخل ضمن النصوص الدينية الموحى بها باعتبار أن الرسل يبلغون كلام الله وإرادته، فالرسول لا ينطق عن الهوى. قال تعالى: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (سورة الحشر، الآية ٧).

والسؤال المطروح هنا: هل راع الحداثيون هذا التقسيم للنصوص الدينية أم أن مفهوم النصوص الدينية عندهم يختلف عن ما عهده العرب المسلمون في تداولاتهم؟

يقول محمد أركون في كتابه "الفكر الإسلامي نقد واجتهاد": "أفضل التحدث شخصياً عن الخطاب القرآني، وليس النص القرآني عندما أصف المرحلة الأولية للتلفظ (أو التنصيص) من قبل النبي، ذلك أن مرحلة الكتابة قد جاءت فيما بعد في ظل الخليفة الثالث عثمان (بين عامي ٦٤٥-٦٥٦م)" (محمد أركون، ١٩٩٨، ص ٧٣) ولعل السبب الذي جعل أركون يفضل كلمة خطاب قرآني بدل نص قرآني هو أن أحسن تعبير عن الفترة الشفاهية لتلقي النبي (ص) للقرآن هو كلمة خطاب وليس كلمة نص لأن التدوين لم يحصل بعد. ضف إلى ذلك أن الألسنيات الحديثة والمعاصرة تقر بأهمية التمييز بين مفهومي النص والخطاب، فالنص الشفاهي (الخطاب) بعد كتابته يصبح نص. ولعل السبب الذي جعل أركون يفضل كلمة خطاب على كلمة نص هو: "أن هناك أشياء تضيع وتنحور أثناء الانتقال من المرحلة الشفاهية على المرحلة الكتابية" (حبشية نبرس، ٢٠١٩، ص ٢٤٥) هنا يظهر مدى تأثر محمد أركون بالفكر الغربي

وبالمناهج الغربية، وكأن أركون في هذا المقام ينقل لنا ما قاله بول ريكور إذ أنه: "يقسم الخطاب إلى وحدات: الكلمة ، الجملة ثم النص. وهنا يتساءل ريكور نفسه ما هو النص؟. ليحيب في نفس الوقت على أن كلمة نص تطلق على كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة" (صلاح فضل، ١٩٩٢، ص ٢١٦) وما يمكننا استنتاجه أن كلا المفكرين ريكور، و أركون يميز بين الخطابات الشفهية والخطابات المكتوبة والتي هي النص، ومعنى ذلك أن الكلام الشفهي لا يعبر عن النص، وما يحفظ الخطابات الشفهية هو تدوينها، وتثبيتها بواسطة الكتابة على حد تعبير بول ريكور ، وحينها تكون العلاقة بين النص والخطاب ترتبط بالكتابة، فكل خطاب مكتوب مثبت هو نص، أي أن من يؤسس النص هو الكتابة، ومجال الكتابة وحده هو ما يشكل فعل ولادة النص.

وما نستنتجه من كل هذا أن الحداثيون لا يوظفون مصطلح النص القرآني للدلالة على القرآن الكريم، بل إنهم يجذبون لفظ ومصطلح الخطاب القرآني، ذلك لأنهم يميزون بين مرحلتين زمنيتين، المرحلة الأولية للتلفظ من قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ومرحلة الكتابة (زمن التدوين) التي جاءت فيما بعد في ظل خلافة الصحابي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهنا يقول أركون: "وأيا تكن المكانة اللاهوتية للتلفظ الأولي بالرسالة، فإنه قد حصل مرور من الحالة الشفاهية إلى حالة النص المكتوب، كما وحصل تثبيت بواسطة الكتابة للرسالة التي تم جمعها ضمن ظروف تاريخية ينبغي أن تتعرض للنقد التاريخي والضبط التاريخي والتحقيق التاريخي" (محمد أركون، ١٩٩٨، ص ٧٧) ومعنى هذا أن جميع النصوص الدينية الكبرى (التوراة، والإنجيل، والقرآن) تشترك في صفحة الوحي (التنزيل)، كما أنها تشترك في أنها مرت بمرحلتين (الشفوية، والكتابة).

والقصد الذي يريده الحداثيون من كل هذا هو أن نقرأ النص الديني (القرآن والسنة) كما قرأ الآخر (الغرب) نصوصه، أي أن نطبق على القرآن ما طبق على التوراة والإنجيل، وعليه فإنه يجب على المفكر المسلم الرجوع إلى ما قبل الكتابة (المرحلة الشفوية) لمعرفة حقيقة النص الديني، وهنا بالذات يظهر شك أركون في القرآن (المصحف)، حتى أنه يقول: "قلت المصحف ولم أقل القرآن لأنه يدل على الشيء المادي الذي نمسكه بأيدينا يوميا، ولأنه يقابل التوراة والأنجيل بالضبط، فهو كتاب مؤلف من صفحات سجل فيها الخطاب القرآني بالخط المعروف، وقد كرس هذه النصوص طبقا لمجريات مبلورة ومضبوطة من قبل السلطات العقائدية، ثم رسخت على هيئة مدونات رسمية مغلقة" (المرجع نفسه، ص ٤٤) .

ولعل هدف نزع القداسة عن القرآن هو ما جعل الحداثيون يتدرجون في الشرح والمقارنة والتوصيف لهذه المفاهيم (النص، والخطاب) من أجل محاولة إقناع القارئ أن النص الديني ليس نصا مقدسا مثله مثل باقي النصوص الأخرى، وبالتالي فقراءته ونقده وتمحيصه، وتطبيق المناهج الحديثة عليه هو من الأولويات التي يجب علينا القيام بها، بل هي مهمة مستعجلة من أجل طرق باب الدخول في التاريخ الذي تشكل في غيابنا يقول أركون: "لنذكر الآن المهام العاجلة التي تتطلبها أية مراجعة نقدية للنص القرآني، ينبغي أولا إعادة كتابة قصة تشكل هذا النص بشكل جديد كليا ، أي نقد القصة الرسمية للتشكيل التي رسخها التراث المنقول نقدا جذريا... بعدها نقوم بإعادة قراءة سيمائية ألسنية للنص القرآني" (كيحل مصطفى، ٢٠١١، ص ١٥٢) وهذا ما يحررنا حسبهم من تلك القراءات

التقليدية التي سيطرت على النص القرآني مدة طويلة من الزمن وأسطرته وقدرته وجعلته متعاليا عن كل مناقشة وتحليل، ومنه فالسبيل الوحيد لنزع القداسة عن النص الديني هو تجاوز القراءات التقليدية وتأسيس مشروع فلسفي علمي يعتمد على ما أفرزته العلوم الإنسانية والاجتماعية من مناهج حديثة ومعاصرة.

لكن النص الديني عند المسلمين ينقسم إلى قسمين أساسيين: "أحدهما يمثل الوحي، وينقسم بدوره إلى قسمين: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. أما القسم الثاني فيطلق ويراد به اجتهادات علماء المسلمين، المتمثلة في مختلف العلوم الإسلامية، كالتوحيد، والفقه والتفسير، والحديث... وغيرها" (مرزوق العمري، ٢٠١٢، ص ٢١) وعلى هذا الأساس تنقسم النصوص عند العلماء المسلمين إلى نصوص قطعية وظنية "والقطع يكون إما على مستوى الثبوت أو على مستوى الدلالة، أو على مستوى الثبوت والدلالة معا، والظني قد يكون على مستوى الثبوت أو على مستوى الدلالة، أو على مستوى الثبوت والدلالة معا" (المرجع نفسه، ص ٢١) وعلى هذا الأساس أيضا يثبت المسلمون أن القرآن الكريم قطعي كله على مستوى الثبوت، أما على مستوى الدلالة فمنه الظني ومنه القطعي، والآيات التي أفادت الظن في دلالتها هي التي سميت بالمتشابهات لقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ" (سورة آل عمران، الآية ٧) أما السنة النبوية فقد تضمنت الوصفين معا: الظن والقطع، على المستويين معا: الثبوت والدلالة، فمنهما ما هو ظني الثبوت كالأحاديث الضعيفة، ومنها ما هو قطعي الثبوت كالأحاديث الصحيحة، ومنها ما هو ظني الدلالة، ومنها ما هو ظني الدلالة كالأحاديث المختلفة بتغيير الإمام ابن قتيبة" (مرزوق العمري، ٢٠١٢، ص ٢١) معنى هذا أنه ما عدا القرآن والسنة النبوية اللذان يشكلان طرفا الوحي، نجد القسم الثاني الذي يمثل اجتهادات العلماء المسلمين في مختلف العلوم الإسلامية.

لكن هذا التقسيم المشهور عند علماء المسلمين يخالف الحداثيون، فيعتبرون أن هناك "تفرقة في النصوص بين "النص الأصلي" و "النص الثانوي"، النص الأصلي في حالة التراث الإسلامي هو "القرآن الكريم" باعتباره "النص" الذي يمثل الواقعة الأولى في منظومة نبعت منه وتراكمت حوله، والنصوص الثانوية تبدأ بالنص الثاني، وهو نص السنة النبوية الشريفة، إذ هي في جوهرها شرح وبيان للنص الأصلي الأول، وإذا كانت السنة النبوية نصا ثانويا ثانيا، فإن اجتهادات الأجيال المتعاقبة من العلماء والفقهاء والمفسرين تعد نصوصا ثانوية أخرى من حيث شروح وتعليقات، إما على النص الأصلي الأول، أو على النص الثانوي" (نصر حامد أبو زيد، ١٩٩٦، ص ١٣) هنا بالذات يتبين أن هذا التقسيم للنصوص (نصوص أصلية، ونصوص ثانوية) بالنسبة للرؤية الحداثية هدفه التأسيس للتاريخية والتي من أولوياتها إعادة النظر في قداسة النص الديني والكشف عن آليات تعالیه.

III. خاتمة:

وفي ختام هذا البحث الذي سعينا من خلاله إلى محاولة القيام بدراسة مقارنة بين مفهوم النص عند الأصوليون ودعاة الحداث، والتي أردنا من خلالها تبين أهم المحاور التي يجعلها الحداثيون وكذا الأصوليون مرجعا ومنطلقا في ضبط مفهوم النص الديني وكيفية قراءته انتهينا فيها إلى جملة من النتائج كانت على النحو الآتي:

بالنسبة لمفهوم النص فنلاحظ أنه لما كان من معانيه الظهور والبروز وغاية الشيء ومنتهاه فإنه يشترك مع كلمات أخرى في هذه المعاني من مثل: فصاحة وبيان ، وحي وكتاب ، وكلام وقول وخطاب وبلاغة. وهي كلها تدل على الظهور والبيان ، والوضوح والبروز مع وجود بعض التمايز بينها.

كما لاحظنا أن مفهومه مختلف بين الثقافتين العربية والغربية ففي الأولى يعني الحدث والقيام بالعمل عند النحويين، والظهور والبيان عند اللغويين ، والأرجح أنه يعني عند أغلبهم القرآن والسنة وهذا ما لمسناه عند الأصوليون الذين عدوا النص ما لا يحتاج إلى تأويل ويكون بذلك إما يحتمل معنى واحداً وإما لا يحتمل إلا معنى واحداً. أما في الثقافة الغربية فمفهومه يحيل إلى النسيج (من الفعل نسج أي ضم الخيوط إلى بعضها في عملية السدة) وبهذا فهو مجموعة مركبة العناصر منسوجة مع بعضها لتشكل ما ندعوه نص. كما يحيل عندهم أيضاً إلى الاكتمال والاستواء.

وعن مفهومه عند دعاة الحداثة - خاصة العرب - فلم يستقروا على تحديد واضح له فكانوا مختلفين باختلاف آرائهم وتوجهاتهم فمنهم من يعده نصاً لغوياً ، ومنهم من يعده نصاً تاريخياً ، والآخر يقول إنه نص فينقي وبهذا فالنص في اصطلاحات الحداثيين قد تنوعت مفاهيمه بتنوع التخصصات العلمية ، وبتنوع الاتجاهات والمدارس المختلفة.

كما رأينا أن الحداثيون يتعاملون مع النص الديني عامة والقرآني منه على وجه الخصوص من منطلق إعادة النظر في قداسته ، والكشف عن آليات تعاليه ، من خلال البحث في طبيعته اللغوية ، وتاريخ تكونه ، ومراحل تشكله واستقراره. ولعل أن هذه الأمور هي ما جعلت من قراءتهم للفكر الإسلامي تختلف في صميمها عن الكثير من القراءات الأخرى المجاورة لها ، كل هذا كان من أجل هدف هو إبراز محدودية القراءات السلفية الأصولية التي ترى في النص جوهر لا يمكن المساس به. لكن كل هذه الأقوال التي نقلها لنا دعاة الحداثة نرى أن الكثير من المسلمين لا يعيرونها قيمة و شأناً، بل إنهم يعيشون مع قرائهم الذي لا يقبلون المناقشة حوله - التشكيك في صحته - لأنه يعبر عن منهج ربحم الذي خلقهم في أحسن تقويم وهداهم إلى الطريق القويم ، فالأزمة ليست فيه ومنه وإنما بسبب الخروج عن أحكامه وتعاليمه.

أما الرأي الآخر الذي يتبناه الحداثيون هو أن النص الديني بحكم معطائته و غزارة معانيه - كثير المعاني وكثير الدلالات - لا يقبل قراءة واحدة بل عدة قراءات ما فرض علينا قراءته مرات ومرات لا لشيء إلا لتجاوز تلك القراءات الأصولية التي ترى أنها الوحيدة التي تمتلك الشرعية في تأويل النص الديني ، وأن قراءتها هي الوحيدة التي لا تحتمل قراءات أخرى لأنهم يعتبرونها "مقدسة"، وهذه الأخيرة هي التي ألزمت على الحداثيون البحث عن مواقع أخرى أساسها المنهجية المعرفية الغربية التي تتجه نحو البحث النقدي عن آفاق جديدة للمعنى و الوجود، وبهذا فدعاة الحداثة لا يؤمنون بالقراءة الواحدة أو التأويل الواحد (النهائي) للنص الديني وإنما بتلك التي تعطي لمعنى النص تعددية أكثر.

قائمة المراجع:

- * إبراهيم الفقي صبحي، (٢٠٠٠)، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقية على السور المكية ، ط١ ، دار قباء ، القاهرة (مصر).
- * الزمخشري، (١٩٩٨)، أساس البلاغة ، تحقيق :محمد باسل عيون السود ، ج٢ ، ط١ ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت (لبنان).
- * الشافعي محمد بن إدريس، (د.ت)، الرسالة ، تحقيق :أحمد محمد شاكر ، المكتبة العلمية، القاهرة (مصر).
- * أحمد رحمان، (٢٠٠٩)، قضية قراءة النص القرآني ، عين بنى مطهر المحروسة (مصر).
- * باسم علي خريسان، (٢٠٠٤)، ما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق (سوريا).
- * حبيبة نيرس، (٢٠١٩)، الخطاب ومفهوم النص في تأويلية بول ريكور" ، مجلة جسور المعرفة ، مج٥ ، ص٢٤.
- * سعيد يقطين، (١٩٨٩)، انفتاح النص الروائي، ط١، (د م).
- * شرشار عبد القادر، (٢٠٠٦)، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق.
- * صالح الدين ملفوف، (د.ت)، "مفهوم النص في المدونة النقدية العربية" ، المركز الجامعي خميس مليانة (الجزائر).
- * طه عبد الرحمان، (٢٠٠٠)، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، ط٢ ، بيروت (لبنان).
- * فضل صلاح، (١٩٦١)، بلاغة الخطاب وعلم النص ، ط١ ، الشركة المصرية العالمية للنشر والتوزيع ، لوجمان.
- * فضل صلاح، (١٩٩٢)، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، عدد ١٦٤.
- * كيحل مصطفى، (٢٠١١)، الأسنة والتأويل في فكر محمد أركون، ط١، منشورات دار الاختلاف (الجزائر)، ودار الأمان بالرباط (المغرب).
- * مجموعة من الباحثين، (٢٠٠٦)، النص الديني ووظيفته، أعمال طاولة مستديرة عقدت بالتعاون بين معهد الدراسات الإسلامية والمسيحية ومعهد المعارف الحكيمة للدراسات الدينية والفلسفية، ط١ ، دار المشرق ، بيروت (لبنان).
- * محمد أديب الصالح، (د.ت)، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي ، ج١ .
- * مزروق العمري، (٢٠١٢)، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي المعاصر، ط١، منشورات ضفاف، بيروت (لبنان)، ومنشورات الاختلاف (الجزائر).
- * ميجان الرويلي وسعد البازغي، (٢٠٠٢)، دليل الناقد العربي ، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت (لبنان) و الدار البيضاء (المغرب).
- * ميلز سارة، (٢٠٠٤)، الخطاب ، ترجمة: يوسف غول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات ، جامعة منتوري قسنطينة (الجزائر).
- * نصر حامد أبو زيد، (١٩٩٠)، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن " دراسات أدبية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- * نصر حامد أبوزيد، (١٩٩٥)، النص، السلطة ، الحقيقة (الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة)، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت (لبنان).
- * نصر حامد أبوزيد، (١٩٩٢)، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، ط٢، المركز الثقافي العربي (بيروت).

* نحلة فيصل الأحمد، (٢٠٠٢)، التفاعل النصي (التناسية: النظرية والمنهج)، كتاب الرياض (السعودية).

* إبريز بشير، (٢٠٠٧)، "مفهوم النص في التراث اللساني العربي"، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٣، العدد الأول، دمشق (سوريا).

* ابن منظور، (١٩٩٤، ١٩٥٥)، لسان العرب، ط ١، ط ٢، ج ١، ج ٧، دار صادر، بيروت (لبنان).

* أغضابنة الطاوس، (٢٠١٠)، الخطاب الديني عند محمد أركون من خلال مشروعه الفكري (رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه)، جامعة منتوري قسنطينة (الجزائر)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم الفلسفة، إشراف عبد الحفيظ عصام.

* الزركشي، (٢٠٠٦)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ج ١، ج ٢، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان).

* الزناد الأزهر، (١٩٩٣)، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، ط ١، بيروت (لبنان).

* محمد أركون، (١٩٩٨)، الفكر الإسلامي "نقد واجتهاد"، ترجمة: هاشم صالح، ط ٣، دار الساقى، بيروت (لبنان).